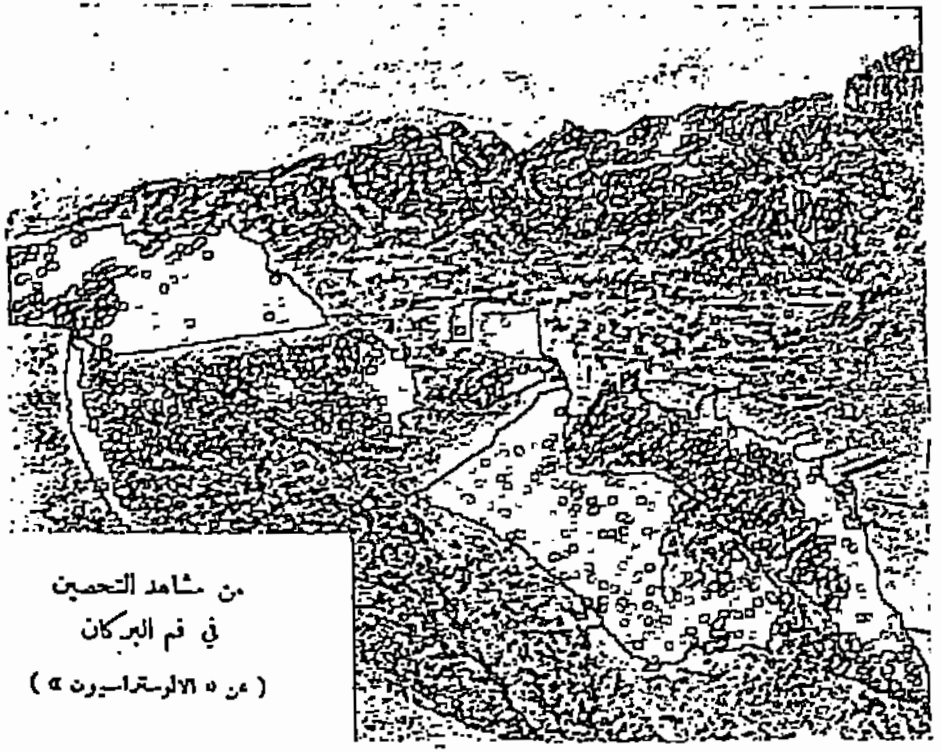

من مشاهد التحصين
في قم البركان
(عن « الالوستراسيون »)

عدن

الفردوس الغابر

بقلم فؤاد افرام البستاني

« ليس بين مناخ عدن وحرارة الجحيم الّا سماكة ورقة رقيقة. »[1]

لا عجب ان ينسب الرحّالة بيْت الى الجحيم تلك الحرارة الثقيلة الوطأة التي تأخذ بخناق المسافر ، اذا ما جال في طرق عدن اللاهبة ، فجفّف خياشيمه هواؤها اللافح ، وبهرت عينيه مناظرها الجرداء تتناوبها الألوان القاسية من الأحمر الناري

---

(1) Theodore and Mrs. Beat, *South Arabia*, 1900, p. 46.

في الجبال ، الى الازرق الوسخ في البحر ، الى الأكدر الرصاصي في السماء ؛ لا تلطفها خضرة ليّنة ، ولا يخفف حدّتها ضباب رطب .

لا عجب ان ينسبها الى الجحيم ، وقد سبقته الاساطير العربية الى مسخ عدن عن الفردوس الارضي . كانت تلك الجنة باسقة الاشجار ، متلاعبة الأنهار ، وارفة الظلال ، عذبة المقيل والمنام ، ينعم فيها الانسان الاول في راحة وادعة . حتى يخطئ خطيئته الاولى . واذا به يطرد من عدنه طردًا ابديًا ، واذا بالفردوس يُمسخ عدن الحالية .

وتتوالى الاحداث الفاجعة على عدن . فيُدفن فيها قابين ، او قابيل ، في احد كهوف الجبل ، بين التراهي وفم البركان . ثم تُصبح موطناً لقوم عاد ، على ما ورد في اقوال بعض الرواة . ويُرسل اليهم النبي هود . فيُعرضون عن تعاليمه . فيستعين عليهم بالحواصب والقواصف . واذا بفريق منهم تهلكهم السموم ، وبالفريق الآخر يُمسخون قرودًا يمرحون في الجبال القريبة من عدن . ولا يزال حفدتهم يأهلونها الى اليوم .[1] ولن يزالوا فيها حتى يثور البركان ثورته الاخيرة فيفتح طريق الجحيم ، ممتلئاً للملأ ابتداء اليوم الآخر

وكأن ذكرى القرود هذه هاجت مخيلة ألبر لوندر ، فاستغرب ان لا يرى الشياطين تتواثب في تلك القمم الجحيمية الخاضر ، فتتناول المعذّبين باسنة النكال ، وترمي بهم في المراجل الجائشة .[2]

بيد ان هذا المنظر الرائع وحشةً وجفاء رنق ملكة سبا ، في اساطير القدماء ، فشاءت ان تعيد اليه الحياة . وأمرت بصنع اسداد هائلة لا يزال علماء الآثار يحاولون تأريخها علمياً ، فتضطرب تقديراتهم على مدة الف سنة ، بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس ق . م . ولا يتفقون الا على الاعجاب بها اعجابهم بأثر من اروع الآثار الهندسية في العالم . تنتصب تلك الأسداد في مضيق متحدر ، فتستند الى الجبلين ، محفورًا بعضها في الصخور . وتتدرج هابطة الواحد تحت الثاني .

(١ D' Van der Meulen, *National Geographic Magazine*, 1932.

(٢ Albert Londres cité dans *l'Illustration*, 21 septembre 1940, p. 69.

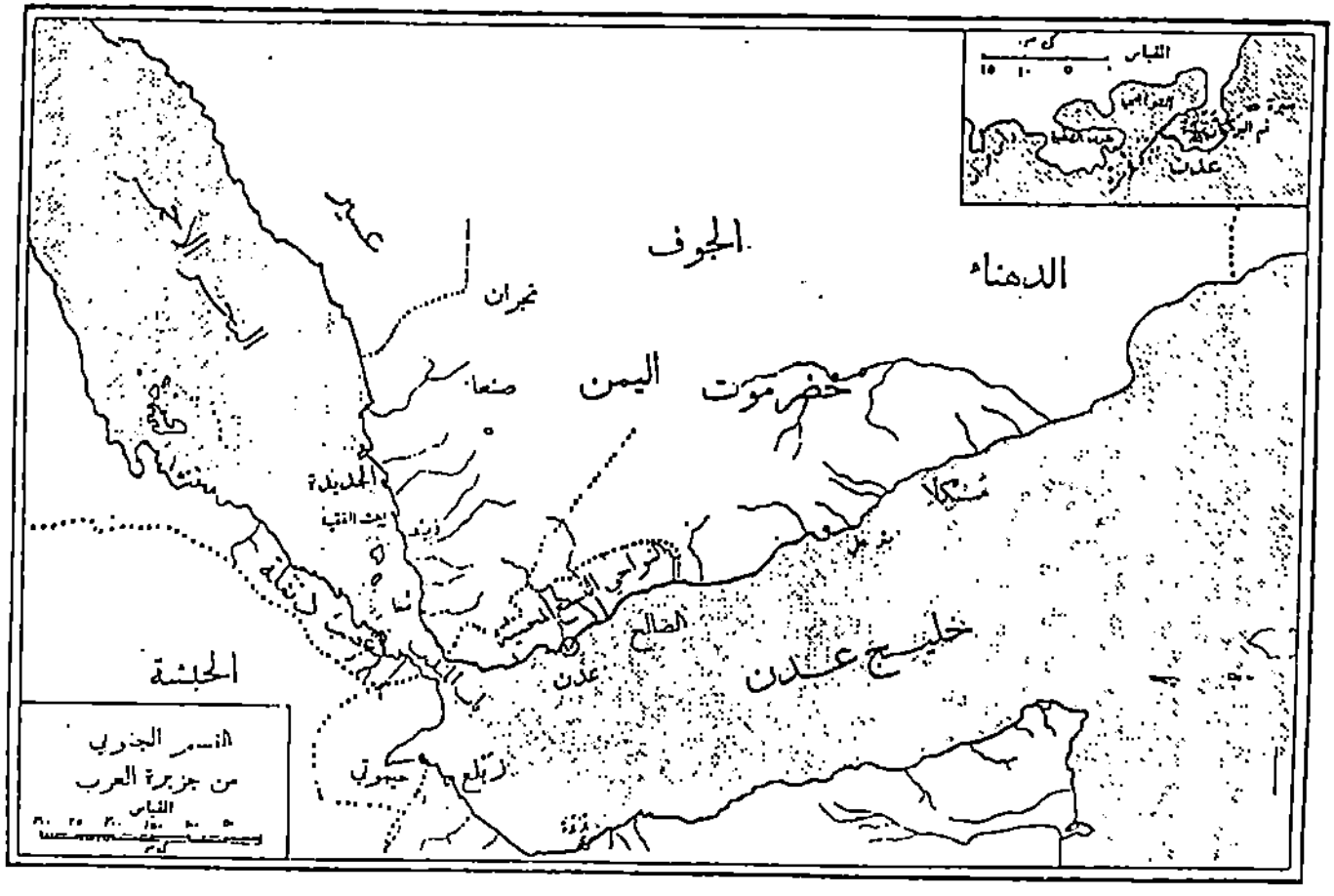
الجوف
الدهناء
نجران
صنعا
اليمن
حضرموت
الحديدة
بيت الفقيه
المكلا
الحبشة
خليج عدن
عدن
الضالع
زنجبار
جيبوتي
الأسر الجذرب
من جزيرة العرب

حتى اذا امتلأ الحوض الاعلى صبّ فضله في التالي. وهكذا حتى الخزان الاخير القائم في سفح الجبلين على انها، لفرط سعتها — وهي تستوعب ٨٠ مليون غالون

منظر بعض الاسداد (عن «الاوستراسيرن»)

من الماء — ولقلّة الامطار في تلك المنطقة، لا تكاد تمتلي الّا مرة او مرتين في كل بضع سنين.[1]

محاولة جبارة قامت بها ملكة سبا. ولكنها لم تُفلح في اعادة الفردوس المفقود. فظلّت عدن ملتحفةً بجفافها اليائس، لا يلوح غصن اخضر في مَواتها البركاني، ولا ينبسط مرعى في شعابها القاتمة؛ ولا ينساب جدول ينقع غلّة اهلها؛ ولا ترفرف في جوّها الرصاصي أجنحة غِرّيد، الّا ما كان من

(١) راجع، في وصف هذه الاسداد، امين الريحاني: ملوك العرب (الطبعة الثانية) ١: ٢٤٤

كواسر العقبان ، ونواعق الغربان ؛ يضاعف تدويها الدوائر السود في تلك الحُرُمات اللاهبة . حتى لو شاءت احدى الجوقات التمثيلية ان تعرض رواية مكبث لشكسبير ، لعجزت عن إخراجها على مسارح عدن. ذلك ان في الرواية الشهيرة مشهدًا تتقدم فيه جنود ملكوم ، وقد استتر كلّ منهم بغصن من الشجر ، فخفي سيرهم على انظار المراقبين . واين الاغصان في عدن ؟[1]

بيد ان هذا الجدب لم يمنع بعض ارباب الشعر — واعذب الشعر اكذبه — من التغزّل برياض عدن وحدائقها ؛ وكأنهم يتصوّرونها في عهد فردوسها الارضي ، او يتخيلونها كما يشاء خيالهم . قال ابو بكر احمد بن محمد العيدي :

حيّاكِ ، يا عَدَنُ ، الحيا حيّاكِ ! وجرى رضاب لثاه فوق لماكِ ،
واقترّ ثغر الروض فيك ، مضاحكًا بالنشر ، رونق ثغره الضحّاكِ ؛
ووشت حدائقه عليك مغارفًا يختال في حبراتها عِطفاكِ ! (٢

اما الاسداد فطمرتها العصور المتعاقبة ، حتى اعاد الانكليز حفرها ورمّوها سنة ١٨٥٦ .

وتدخل عدن في ضوء التاريخ منذ العهد الفنيقي ، فتُعرف بكونها من المناطق المتّجرة مع صور « بالانسجة الفاخرة ، باردية من السمنجوني والوشي ، وبالنفائس من الثياب المُبرمة المشدودة بالحبال المحكومة بين بضائع صور .»[3] كما يُستنتج من رثاء حزقيال للمدينة الفنيقية العظيمة[4] ، ومن تعاليق درسَر على هذا الرثاء.[5]

ثم يظهر اليونان والرومان على مسرح العالم ، فيدركون اهمية موقعها التجاري ،

١) راجع ما يورده بنوا في روايته الاخيرة Pierre Benoit, *Les environs d'Aden*, 1940, p. 184.

٢) ياقوت : معجم البلدان (Wüstenfeld) ٣ : ٦٢٢ — وفيه تصحيفات اصلحناها .

٣) نبوءة حزقيال ٢٧ : ٢٤

٤) نبوءة حزقيال ٢٧ : ٢٣— ويرد اسمها في الترجمة العربية اليسوعية بصيغة « عادان »

٥) René Dussaud, *Les Phéniciens au Négeb et en Arabie d'après un texte de Ras Shamra*. [*Revue de l'Histoire des Religions*, CVIII, 1, Juillet-Août 1933, p. 47-48.]

فتزورها مراكبهم ناقلةً بضائع الهند ، وفارس ، وبلاد العرب ؛ ويدعونها « أدَنه » او « أثنه » . ولا يلبث الرومان ان يحتلّوها في جملة مـا احتلّوه من سواحل العرب.[1]

اما التاريخ العربي القديم ، فقد كان لها فيه النصيب الوافر. دخل اسمها في احداث العرب الاقتصادية ، كما دخل في اساطيرهم. وهم يُجمعون على انها اقدمُ اسواقهم تحفل بالمصانع والمناسج ، وتستقبل تجارة الهند منذ القدم[2] فتتفرّق بضائعها ومنسوجاتها حتى اطراف الحجاز وبطائح نجد. وتُعرض الثياب « العَدَنية » في سوق عُكاظ[3] ، فيتنافس السادة في الحصول عليها .

على ان علماءهم رغبوا في شرح اسمها ، رغبتَهم في شرح كل شيء ، فقال الطبري : « سُمّيت « عَدَن » و« أبيَن » بعدن وأبين ابني عدنان. » وقال ابن الكلبي : « سُمّيت عدن بعَدَن بن سنان بن نفيشان بن ابرهيم » وقال اهل السير : « سميت بعـدن بن سنان بن ابرهيم . » ومال عبد المنعم الى شرح اسمها شرحاً لغويًا ، فينقل عن وَهب « ان الحبشة عبرت في سفنهم فخرجوا في عدن ، فقالوا : عدونا ، فسمّيت عدن بذلك وتفسيره : خرجنا. » اما ياقوت فلا يلتحق بالحبشة في شرحه اللغوي ، بل يكتفي بالعربية ، فيقول : « عَدَن . . . من قولهم : عدن بالمكان ، اذا اقام به ، وبذلك سمّيت عدن. » وهو يستغرب شرح الطبري المتقدم ، فيقول : « وهذا عجب لم أرَ احدًا ذكر أن عدنان كان له ولد اسمه عدن غير ما ورد في هذا الموضع. »[4] وما كان احراه باستغراب سائر ما ورد من الشروح والتفاسير !

وينتشر الاسلام في اطراف الجزيرة ، فيعيّن النبي على عدن حاكماً خاصاً هو ابو موسى الأشعري.[5] ولكن لا يلبث تاريخها ان يندمج بتاريخ اليمن مدة

---

١) Lammens, *La Mecque à la veille de l'hégire*, p. 240.

٢) جغرافية المقدسي : ٦٧ ، ١١٥

٣) الاغاني ٣ : ١٠٥ ؛ ١٩ : ٧٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٢٨٢ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ١٧٣

٤) ياقوت : الكتاب المذكور ٣ : ٦٢١-٦٢٢

٥) ابن الاثير : اسد الغابة ٣ : ٢٤٦

العصور الطويلة. حتى بزغ القرن العاشر للمسيح فيؤسس فيها الزياديون ، او بنو زياد ، سنة ٩١٦ دولة مستقلة لا تترك ما يُذكر من الآثار.

وبعد ذلك بنحو مائة سنة ، يملكها بنو معن اصحاب لَحج ، وأبين ، والشهر ، وحضرموت. فلا تدوم سلطتهم طويلًا.

ويخلفهم بنو الكَرَم، ينالون حكم المنطقة من المكرّم الصُليحي، صاحب صنعاء.

ومن بني الكَرَم ينشأ الزُرَيعيّون الاسماعيليون ، فينادون باستقلالهم التام سنة ١١٢٥. ويتوالى منهم اربعة عشر اميرًا في نحو تسعين سنة يحكمون المدينة اثنين اثنين في العهد الاول ، ثم فردًا فردًا حتى السنة ١١٧٤[1] ، فيزحف عليهم طوران شاه الايوبي ، اخو صلاح الدين ، ويقضي على دولتهم ، كما قضى اخوه على دولة الفاطميين التي كانت تعطف على امراء عدن لصلتهم الدينية بها.

ولم تكن الدولة الايوبية طويلة الحياة في عدن ، فانقرضت في السنة ١٢٢٨.

فدخلت عدن في حكم الرَسُوليين ، ملوك اليمن. وقد شادوا دولة قويّة عاشت اكثر من مائتي سنة ، تعاقب فيها ثلاثة عشر ملكاً مستقلًا اولهم الملك المنصور نور الدين عمر الاول (١٢٢٨—١٢٥٠) وآخرهم الملك المظفر يوسف (١٤٤٢—١٤٤٣). وبعد وفاته تزاحم على الملك اربعة من الرسوليين هم:

---

١) هذا ما وقفنا عليه من تسلسل هؤلاء الامراء :

١ العبّاس	١٠٨٣ — ؟	يحكم مع مسعود ١٠٨٣ — ١١١٠	وهما اللذان عيّنهما المكرّم الصُليحي.
٢ زُريع	١٠٨٧؟— ١١١٠	يحكم مع ابي الغارات	
٣ ابو السعود		يحكم مع محمد	
٤ سبأ	— ١١٣٨	يحكم مع علي	— ١١٣٨ خُلعا ، ولم يلبث سبأ ان توفي.
٥ الاعزّ المرتضى	١١٣٨ — ١١٣٩		
٦ محمد المعظم	١١٣٩ — ١١٥٣		
٧ عمران المكرّم	١١٥٣ — ١١٦٤		
٨ محمد	١١٦٤ — ١١٧٣		
٩ ابو السعود	١١٧٣ — ١١٧٣		
١٠ مسعود	١١٧٣ — ١١٧٤		

المفضّل محمد، والناصر عبدالله تنازعا العرش منذ السنة ١٤٤٣، ثم المسعود نادى بنفسه ملكاً سنة ١٤٥٠، واخيرًا المؤيّد الحسين ادّعى الملك سنة ١٤٥١[1]. ودام التنازع حتى السنة ١٤٥٤، وفيها استولى الطاهريون على عدن، فأضافوها الى زَبيد، وقضوا على سيادة الرسوليين.

وعلى عهد الملك الخامس من الرسوليين، وهو المجاهد نور الدين علي (١٣٢٢ —١٣٦٣)، وصل ابن بطّوطة الى بلاد اليمن، فزار السلطان في عاصمته، وكانت تعزّ، لا صنعاء، واشار الى الغرابة في كيفية السلام عليه، قال: «فلما كان في اليوم الرابع، وهو يوم الخميس، وفيه يجلس السلطان لعامّة الناس، دُخل بي عليه. فسلّمت عليه. وكيفية السلام عليه ان يمسّ الانسان الارضَ بسبّابته ثم يرفعها الى رأسه، ويقول: ادام الله عِزّك!»[2] ثم وصف جلوسه للناس،

١) هذه سلسلة ملوك الرسوليين:

١ – المنصور عمر الأول	١٢٢٨–١٢٥٠
٢ – المنصور يوسف الاول	١٢٥٠–١٢٩٥
٣ – الأشرف عمر الثاني	١٢٩٥–١٢٩٦
٤ – المؤيّد داود	١٢٩٦–١٣٢٢
٥ – المجاهد علي	١٣٢٢–١٣٦٣
٦ – الافضل العباس	١٣٦٣–١٣٧٧
٧ – الاشرف اسماعيل الاول	١٣٧٧–١٤٠٠
٨ – الناصر احمد	١٤٠٠–١٤٢٩
٩ – المنصور عبدالله	١٤٢٩–١٤٣٧
١٠ – الاشرف اسماعيل الثاني	١٤٣٧–١٤٣٨
١١ – الظاهر يحيى	١٤٣٨–١٤٣٩
١٢ – الاشرف اسماعيل الثالث	١٤٣٩–١٤٤٢
١٣ – المظفّر يوسف الثاني	١٤٤٢–١٤٤٣
المفضل محمد	١٤٤٣
الناصر عبدالله	١٤٤٣
المسعود	١٤٥٠
المؤيّد الحسين	١٤٥١–١٤٥٤

٢) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (Defrémery et Sanguinetti) ٢: ١٧٢؛ الروائع ٥: ٧٢

ومواكلته لهم ، وترتيب ذلك .

ومن تعز انتقل الى صنعاء . ومنها الى عدن « مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم .» وكانت في إبان ازدهارها « تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت ، وتانه ، وكولم ، وقالقوط ، وفندرابنه ، والشاليات ، ومنجرور ، وفاكنور ، وهنور ، وسندابور ، وغيرها .» ولاحظ ان فيها عددًا من تجار الهند وتجار مصر يقيمون بها . اما اهلها « فما بين تجار وما بين حمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم اموال عريضة . وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال .» ولا بدّ ان يؤدي هذا الغنى الى « التفاخر والمباهاة » ، ويروي الرحّالة مثلًا على هذه المنافسة بين التجار في مظاهر الغنى - وهي حكاية خلاصتها ان احد التجار ارسل غلامه ليشتري له كبشًا . وكان غيره ارسل غلامًا له في الغاية نفسها . واتفق انه لم يكن في السوق سوى كبش واحد . فوقعت المزايدة بين الغلامين حتى بلغ ثمن الكبش اربعمائة دينار . فسُرّ صاحب الغلام الذي اشترى الكبش ، واعتقه ، وأعطاه الف دينار لانه نصره على صاحبه . اما التاجر الثاني فضرب غلامه .

وعدا ذلك فالقوم « اهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حقّ الله من الزكاة على ما يجب .» وقد نزل ابن بطوطة على احد تجارها فتحقّق رخاء عيشه وحسن ضيافته . ولكنه لم يدع عن الاشارة الى جدب المدينة وحرّها ، والى خزّاناتها القديمة ، قال : « وهي مدينة كبيرة ، ولا زرع بها ، ولا شجر ، ولا ماء . وبها صهاريج يجتمع فيها الماء ايام المطر . والماء على بعد منها . فربما منعته العرب ، وحالوا بين اهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب .»[1]

كان الملك الظافر صلاح الدين عامر الأول ابن طاهر يتولى حكم زبيد منذ السنة ١٤٩٦ . فلما شعر ان الدولة الرسولية في عدن متداعية للانهيار ، بسبب ما كان بين ابناء الاسرة المالكة من الزحام على العرش ، رمى بابصاره اليها ،

١) ابن بطوطة : الكتاب المذكور ٢ : ١٧٢-١٧٦ ؛ الروائع ٥ : ٧٤-٧٥

وجعل يعمل على إلحاقها بمملكته الصغيرة . الّا ان تحقيق هذه الامنية كان من نصيب خليفته واخيه الملك المجاهد شمس الدين علي .

ولم يحكم عدن بعد الملك المجاهد من الطاهريين الا ملكان هما المنصور تاج الدين عبد الوهاب ، وابنه الظافر صلاح الدين عامر الثاني[1] . ذلك ان جيوش المماليك الشراكسة كانت قد مشت على اليمن بقيادة حسن الكردي ، احد قوّاد قانصوه الغوري ، فاهتم الظافر بالدفاع ، ولكنه لم يقوَ على مقاومة الزحف ، فسقطت زبيد ، سنة ١٥١٦ . فجمع ما تبقّى له من رجال ، وقادهم بنفسه الى معركة حاسمة في ١٣ ايار ١٥١٧ كانت نتيجتها انه قُتل هو واخوه ، وفُتحت ابواب اليمن امام المماليك الشراكسة . ولكنهم عجزوا عن دخول عدن .

وكان قد عجز عنها كذلك ، قبل اربع سنوات ، عمارة برتغالية اتت بطريق البحر بقيادة ألفونس دالبوكيرك . فتظاهرت في عرض المدينة ، وحاولت مهاجمة الأسوار . ولكن دون جدوى . وتلتها عمارة ثانية كان نصيبها نصيب الاولى .

وفي اواخر عهد الطاهريين ، وصل الى عدن الرحالة الايطالي الشهير ثارتيا ، فقُبض عليه بتهمة التجسس للبرتغاليين ، والقي في غياهب السجن مدة شهرين .

بيد ان المماليك لم يتمتعوا طويلاً بهذا الملك الجديد . لأن جيوش العثمانيين كانت على الأثر ، بقودها زعماء اللاوند . ولم يلِ اليمن من الشراكسة الّا ثلاثة ولاة في سنة واحدة : الحسن الكردي ، ثم برسباي . وكلاهما قُتلا في السنة نفسها ١٥١٧ . ثم اسكندر الذي اقرّه السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧ ، فعزله ، بعد اربع سنوات ، كمال بك اللاوندي ، اول الولاة من قبل الاتراك العثمانيين .

وظلّت السيادة العثمانية في اليمن كلّه ، فعليّةً حيناً ، اسميّةً احياناً ، حتى السنة ١٦٣٥ . وفيها تقدّمت عساكر إمام صنعاء ، المؤيّد محمد بن القاسم (١٦١٩

---

١) هذه سلسلة الملوك الاربعة الطاهريين :

١ الظافر صلاح الدين عامر الاول ١٤٦٦–١٤٦٩
٢ المجاهد شمس الدين علي ١٤٦٩–١٤٧٨
٣ المنصور تاج الدين عبد الوهّاب ١٤٧٨–١٤٨٨
٤ الظافر صلاح الدين عامر الثاني ١٤٨٨–١٥١٧

– ١٦٤٤) فهرب الوالي العثماني قانصوه باشا .

اما عدن نفسها فلم يدخلها العثمانيون الا سنة ١٥٣٨ . ولكن سرعان ما خسروها ، فاحتلّها زيود إمام صنعاء بعد ثلاثين سنة .

ثم استعادها العثمانيون ، حتى خسروها نهائيًا ، مع سائر مناطق اليمن ، سنة ١٦٣٥ ، كما قدّمنا .

وظلّت في حكم الزيود يستمدّ واليها السلطة من امام صنعاء. حتى السنة ١٧١٩ ، وفيها انفصلت سلطنة لحج عن صنعاء . فكان من ممتلكاتها عدن وسائر المناطق المجاورة .

وقبل ان تنفصل السلطنة المذكورة عن اليمن باحدى عشرة سنة ، وصلت الى عدن بعثة فرنسوية كانت غايتها درس احوال البلاد ومعرفة محصولاتها وبضائعها ، تمهيدًا لتجارة ممكنة بينها وبين فرنسة . وقد دوّن لاروك نتائج هذه الرحلة ، استنادًا الى ملاحظات القبطان ومذكّراته ، في كتاب نشره في باريس سنة ١٧١٦[1] . فكان من اوثق المصادر واجمعها لوصف حالة عدن في تلك الايام .

ولعلّ فرنسة رمت الى احتلال تلك البلاد ، محاولة النجاح حيث اخفق البرتغاليون قبل مائتي سنة ، على ما يذكر گايتان فوكيه في «الآوستراسيون»[2] وقد يكون استنتج ذلك من تمهيد الرحلة ، وفيه يرفع لاروك كتابه الى الوزير الكونت دي پونتشارترن (de Pontchartrain) امين سرّ الدولة ، ويقول ان الوزير المذكور « وافق على مشروع تلك الرحلة وشجّعها بكل ما امكن ان يؤدّي الى نجاحها . »[3]

ومهما يكن من أمر فان الرحلة لا تظهر رغبة الدولة الفرنسوية في احتلال عدن . انما تكتفي ، في قسمها الاول ، بوصف المدينة ، واستقبال حاكمها

---

1) La Roque, *Voyage de l'Arabie heureuse, par l'Océan oriental et le détroit de la Mer Rouge*. Paris, 1716.

2) Gaétan Fouquet, *Aden, porte de la Mer Rouge*. *L'Illustration*, 21 Septembre 1940, p. 72.

3) La Roque, *op. cit.*, A III.

للفرنسويين ، ورغبته الملحّة في الاتجار معهم . ثم تبسط في وصف بعض المدن الساحلية ، ولا سيما مُخا ، ثم في وصف غيرها من مدن اليمن الداخلية حتى ذمار ومرآب او حصن المواهب ، عاصمة ملك اليمن الذي استقبل الفرنسويين استقبالاً حافلاً في ٢٢ شباط ١٧١٢[1]

وصلت المراكب الفرنسوية امام عدن ، في اليوم الثالث لاقلاعها من ساحل الحبشة . ولم تكد تلقي مراسيها وترفع العلم الفرنسوي ، حتى أرسل حاكم المدينة مركبين يحملان الشيء الكثير من المرطبات . وفي اولها ضابط يستقبل الضيوف باسم الحاكم .

وفي صباح اليوم الثاني حيّت المراكب حاكم المدينة باطلاق سبعة مدافع من كل مركب . فاجابها مدفع القلعة . وارسل الحاكم موفدًا جديدًا يحيّي الفرنسويين ويدعوهم الى النزول ، بينما كانت قوارب المدينة وسفنها الصغيرة تأتي جماعات تعرض « المرطبات المتنوّعة » على المسافرين .

وبعد طعام الغداء ، نزل القبطان دي مرڤيل (de Merveille) قائد الرحلة ، يرافقه السيد دي شامپلوريه (de Champloret) ، وعدد من ضباط المراكب الثلاثة . ويحسن بنا الآن ان ندع الكلام للقائد فيصف ما شاهده في تلك الأرض التي يطأها الفرنسيون لأول مرة في التاريخ ، قال :

---

١) كان ملك اليمن ، اذ ذاك ، سادس ائمة صنعاء ، المهدي محمد بن احمد بن الحسن الذي تولى الملك من ايار ١٦٨٦ الى ١٧١٦ . وكان عمره حينئذٍ ٨٧ سنة ، وكان مسابًا يقروح في رأسه ويده ، فشفاه احد جرّاحي باريه (Barbier) احد اعضاء الوفد الفرنسوي . وقدّم له الوفد عدة هدايا منها مرآة اعجبته كثيرًا ، فأقبل يمعن فيها النظر ، وتناولها افراد الحاشية من بعده كلٌّ يتمتع ناظريه بقسمات وجهه . واظهر الإمام رغبته في محالفة ملك فرنسة ، او على الأقل ، في ايجاد علاقات تجارية دائمة بينهما . ثم طلب من الوفد ان يُرسل اليه ملخص تاريخ ملك فرنسة ، وصورة قصره ، واذا امكن ، صورته وصور افراد الاسرة المالكة . وتلطّف فاهدى الى ملك فرنسة ٥٠٠ كيس من البنّ الممتاز أمر بايصالها الى مرفأ مُخا . ويقول اعضاء الوفد ان الإمام تزوّج وهو في السابعة والثمانين . وشاهدوا ، في قصره ، سفيرًا عثمانيًا اتى لعقد اتفاق بشأن تجارة البنّ ، مما يدلّ على اهمية هذا الصنف منذ ذاك العهد .

(La Roque, *op. cit.*, pp.234-264.)

« صادفنا على الرصيف عددًا من الرجال المسلحين ، فقادونا الى الباب الذي يدعونه «باب البحر الكبير» لانه كبير متجه نحو البحر . وكان واقفًا امامه فرقة من الحرس . وقد لاحظت ، في اثناء مرورنا ، ان الباب عظيم السماكة ، مكسوّ الظاهر بالمسامير الحديدية الكبيرة ، مستند من الوراء الى قضيب ضخم من الحديد ، زيادةً في متانته .

« دخلنا من هذا الباب الى مكان معقود . وبعد ان سرنا خمس عشرة خطوة وجدنا غرفة معقودة كذلك ، تنتهي بزاوية . وهنا استقبلنا رئيس الميناء ، وهم يدعونه « امير البحر » ونحن نسميه « ميربار » (Mirebar) . فاحتفى بنا ودعانا الى الجلوس على كراسي غريبة الشكل . ثم سألنا من اين جئنا ، وما الغاية من سفرتنا . ولكن الحديث كان مختصرًا ، لأن هذا الموظف كان قد اعلم الحاكم بنزولنا ، فوصل أمره باستدعائنا اليه .

« خرجنا اولًا من باب حديدي يقفل هذا المكان ، ويقود الى باب آخر ذي اضلاع خشبية . وكنا نمشي بين صفّين من العسكر ، وامامنا ووراءنا عدد من الجنود كذلك . اما « امير البحر » فكان الى يسارنا حتى وصلنا الى قصر الحاكم .

« صعدنا اليه في سلّم جميل ، فوصلنا الى البهو الاعظم . واذا بالحاكم جالس في صدر قاعة منه ، على منبر مكسوّ بالسجّاد النفيس ، وهو مستند الى وسائد مطرّز قماشها بالذهب . وحاشيته الى اليمين والى اليسار مصطفّة على السجّاد . اما سائر القاعة ففروش بالحصر الدقيقة الصنع .

« وصلنا الى منبره دون ان نخلع احذيتنا ، وهذا امر لا يسمح به عادةً لأحد . وبعد ان حيّيناه ، مدّ لنا يده ، ودعانا الى الجلوس ، بواسطة ترجمانه ، وهو موقدّ يرتقالي الأصل .

« بدأ الحاكم ببعض اسئلة عامّة تتناول بلادنا ، ورحلتنا . ثم أكّد لنا حمايته في مناطق ولايته . وقدّم لنا القهوة السلطانية . وتلطّف فاعلمنا بانه اصدر اوامره في اعداد منزل لنا . وبما انه ليس من العادة ان يُتحدّث في الشؤون العملية ، في المقابلة الاولى ، استأذنّا وانصرفنا بعد ان كرّرنا تعابير شكرنا ووعدناه بالرجوع

الى زيارته في اليوم الثاني.»[1]

ثم قادهم امير البحر بالترتيب نفسه الى بيته الخاص، وهو المنزل الذي أمر به الحاكم. ووصفه القبطان بانه بيت كبير جميل الظاهر. الا انه ليس فيه من الاثاث الا الحصر تُستعمل للنوم والجلوس والأكل، فتقوم مقام الأسرّة، والكراسي، والموائد. وقد أُتوا في المساء بعدد من الشموع دون شماعدين. فتعشوا وقضوا ليلة سيئة. وهو ما استغربه «امير البحر» عندما بكّر، صباح اليوم الثاني، مستعلماً عن راحتهم، وكان قد رتّب الحرس حول المنزل، حتى لا يزعجهم احد بضجيج او صراخ. فاجابه القبطان بكل بساطة ان سبب ازعاجهم كان انهم لم يتعوّدوا النوم على مثل هذه الاسرّة الوثيرة. فتبسّم امير البحر ابتسامة خفيفة لاحظها القبطان ودوّنها مرتّباً، لأن هؤلاء القوم، كما يقول، «هم من الرصانة والوقار بحيث لا يكادون يضحكون ابداً ضحكاً عالياً.»

وعادوا الى زيارة الحاكم. وما كادوا يصعدون السلّم، حتى تزاحم نساء القصر وراء النوافذ، ينظرون من خلال المشبّكات الخشبية الى الغرباء. واستقبلهم الحاكم بالترحاب، مُلحّاً عليهم بالاتجار مع قومه. وكانوا قد اهدوا اليه انسجةً من الارجوان وعدداً من البنادق. ثم زاروا ضابط القلعة المطلّة على البحر، واهدوا اليه قماشاً من الجوخ وبندقيتين.

وأصيب الحاكم بألم في معدته. فاوفدوا اليه طبيب الرحلة السيد لا لامباردييه (La Lambardiere) فعالجه وشفاه، بعد حوادث متعدّدة يطول بنا شرحها. وعالج غيره كذلك من سادة العرب في عدن.

ولم يعرف يوصولهم جماعة «البنيان»، وهم سماسرة هنديّو الأصل ينبثّون في السواحل العربية، حتى لحقوهم يعرضون عليهم البضائع المختلفة.

وكان الحاكم، بعد ان استعاد صحته، يبذل جهده في حملهم على الاتجار مع مدينته. الّا ان بضائعهم كانت قليلة. وكانوا قد سمعوا بازدهار التجارة في مُخا. فاستأذنوا في السفر، فزوّدهم بكتاب توصية الى اخيه، حاكم مُخا. وتركوا ميناء عدن في ٢٧ كانون الاول ١٧٠٨.

(١) La Roque, *op. cit.*, p. 48-51.

وكانت مُخا اوسع تجارة من عدن اذ ذاك. فنزلوها مدة. وعقدوا معاهدة مع اليمن وقعها في ١٦ كانون الثاني ١٧٠٩ و٣٠ ذي القعدة ١١٢٠، القبطان دي مرثيل، مدير «الشركة الملكية الفرنسوية»، وحاكم مُخا، الشيخ صالح بن علي الحريبي، اخو حاكم عدن السابق الذكر، والذي صار فيما بعد وزير إمام اليمن. وقد نصت المعاهدة على كيفية تبادل البضائع والاساليب التجارية بين البلدين، كما نصت على ان يدافع كلّ فريق عن الآخر في حالة الخطر[1].

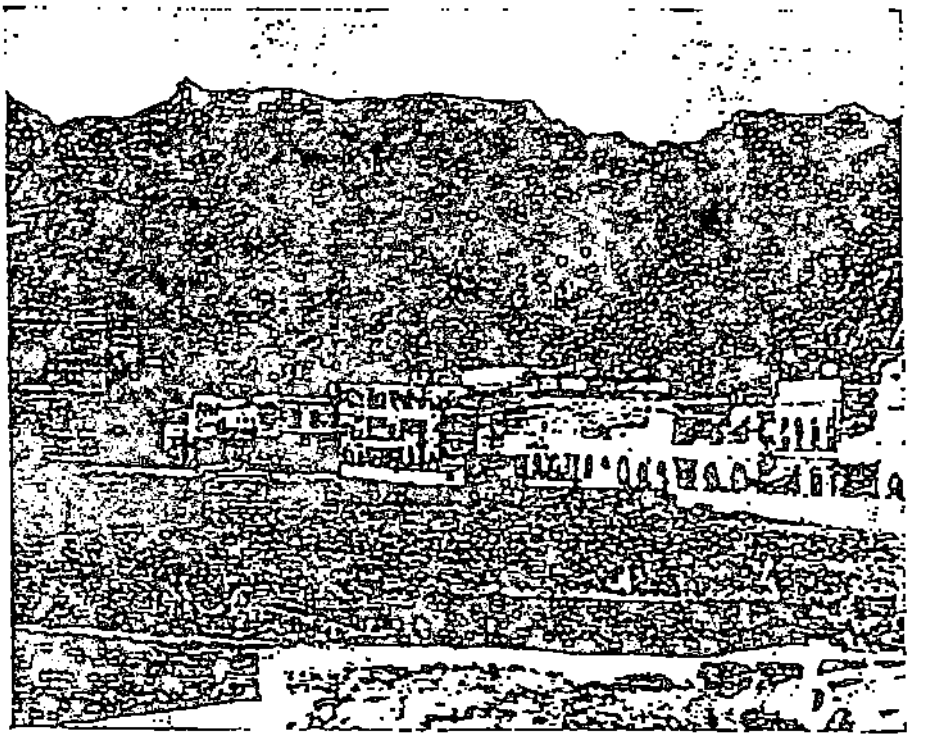

عدن تحيط بها الجبال (تصوير الاب شارل)

اما عدن فيصفها القبطان بدقة، ذاكراً «انها تقع في الدرجة السبعين من الطول، والثانية عشرة من العرض، وفقاً لجداول ابي الفداء. وهي تستريح على اقدام جبال شاهقة تحيط بها من جميع الجهات تقريباً. وفوقها خمسة او ستة حصون، وغير

(١) La Roque, *op. cit.*, p.99-105.

ذلك من مُنشآت الدفاع في عقاب الجبال. وعلى نحو ربع ميل من المدينة خزّان للماء تنحدر اليه من شعاب الجبل فيمدّ سكان المدينة بالماء العذب. وليس فيها سواه. خلافاً لما

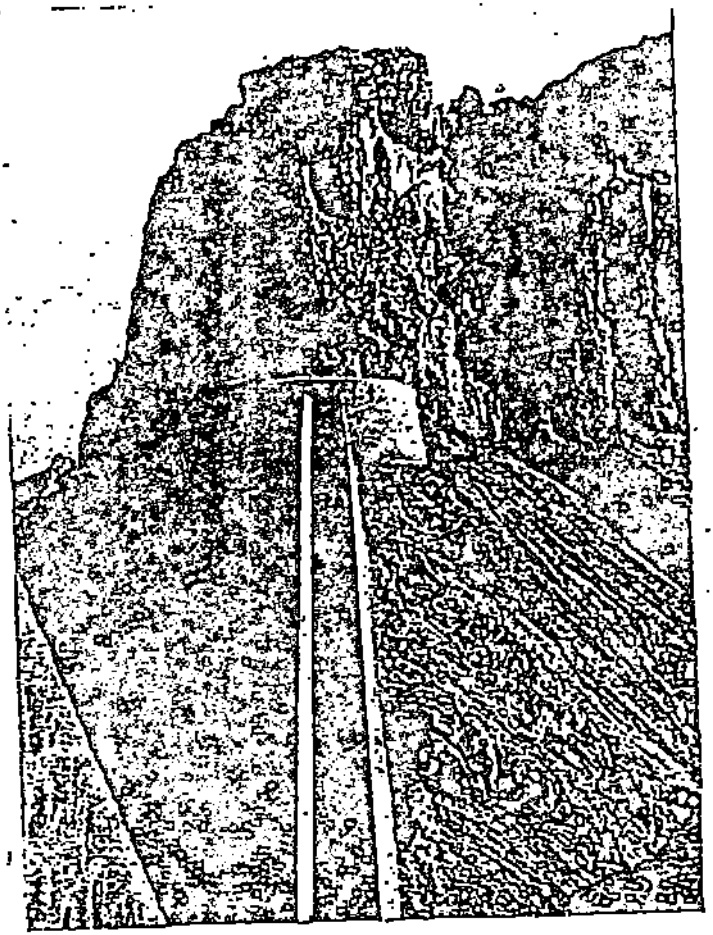

منظر التحصينات فوق الممرّ المهمّ
(عن « الالوستراسيون »)

يذكره جغرافيّونا — ولا اعلم الى ايّ سند يستندون — اذ يجعلون نهراً يخترق المدينة.

« ويحيط بموقع المدينة سور سيء الحالة في عصرنا، ولا سيما من جهة البحر - على ان فيه، من هذه الجهة، بعض المسطّحات تعلوها مدافع من الفولاذ يبلغ عيار بعضها الستين ليرة. ويُقال انها من بقايا المدافع التي تركها سليمان الثاني الذي دخل المدينة واحتل معظم البلاد. ثم اضطرّ الاتراك الى تركها فاستعادها امراء العرب.

« وليس للداخل الى عدن من جهة البرّ الّا طريق واحد ضيّق يتقدم نحو البحر في شبه الجزيرة . ورأس الطريق يقع تحت حصن يحميه حرس منظم . وعلى رمية مدفع من هـذا ، حصن آخر فيه اربعون مدفعاً من العيار الكبير موزّعة في عدة بطاريات . وفيه حامية مستعدّة حتى انه يبدو مستحيلاً اخذ المدينة من هذه الجهة . وبـين هـذا الحصن والمدينة حصن آخر فيه حامية لديها اثنا عشر مدفعاً .

« اما من جهة البحر ، حيث لا يصعب اخذ المدينة ، فيتقسم الخليج المتسع على ثانية او تسعة اميال ، قسمين غير متساويين ، يقرب اصغرهما من المدينة ، وهو المرفأ . وسعته نحو الميل ، من القلعة القائمة فوق البحر والمسلّحة بخمسين مدفعاً الى الرأس المتقدم المتسلسلة عليه الحصون التي اشرت اليها سابقاً .

« ولا اقول شيئاً عن داخل المدينة . وهي كبيرة لا يزال يرى فيها المسافر عدداً من المنازل الجميلة ذات الطبقتين والسطوح المنبسطة . ولكنه يرى كذلك كثيراً من الأخربة والأكواخ . فيفهم بالاستناد الى هذه الآثار ، والى موقعها الممتاز ، ان عدن كانت فيما مضى مدينة عظيمة ، حصينة ، وافرة الاهمية ، بل كانت اهم مراسي بلاد العرب السعيدة . »[1]

وكان القبطان قد زار السوق فرأى فيها « جميع البضائع معروضة مرتّبة في دكاكين مصفوفة على طول عدة شوارع ضيّقة ؛ وكأنها معروضات سوق سان جرمن » .[2] اما اصحاب الحركة بيعاً وشراء في هذه السوق فهم البنيان ، اولئك السامرة المنود الذين ذكرهم سابقاً والذين لا يزالون حتى يومنا في عدن ، يقبضون على موارد التجارة مع اليمن . ولم يرَ القبطان في سوق عدن امرأة واحدة .

ولا بدّ من كلمة عن حمّامات المدينة في ذاك العهد . وقد اقرّ القبطان بانه « لا يمكن ان يرى اجمل منها في نوعها . كلها مفروشة بالرخام وباليصب ، مكللة بقبب شائقة مضيئة ، مزدانة بأروقة تستند الى الاعمدة الجميلة . وجميع غرفها

---

(١) La Roque, *op. cit.*, pp. 62-64.

(٢) La Roque, *op. cit.*, p. 55.

وخلواتها مرتبة ،مقيّة ، تعود كلها الى الردهة الفسيحة ذات القبة الكبرى.»[1]

هذه حالة عدن قبل ان انفصل سلاطين لحج عن إمامة صنعاء ، سنة ١٧١٩. ولم يلبثوا ان استولوا على عدن فجعلوها طليعة حواضرهم ، على مدة تجاوزت القرن . وتعاقب عليها منهم اربعة سلاطين ، حتى رمى الانكليز بانظارهم الى ذلك المركز المهمّ للملاحة التجارية والحربية ، فعقدوا سنة ١٨٠٢ معاهدة اولى تجارية ولائية مع رابيهم ، السلطان فضل الثاني او فُضيل بن عبد الكريم (١٧٧٧—١٨٢٧)[2]. الّا ان السلطان الخامس محسن بن فضل لم يرتقِ العرش حتى نقض المعاهدة. فسكت الانكليز على مضض طول عشر سنوات.

وكانت نهضة محمد علي في مصر ، وطموحه الى ما وراء حدود بلاده . وكان احتلال جيشه لتهامة اليمن ، وتقدّمه نحو عدن. فقلقت بريطانية. وانذرت والي مصر بوجوب التخلي عن بلاد العرب ، بينما كان سفيرها في الاستانة ينال من السلطان عبد المجيد ، فرماناً يخوّل الانكليز حقّ الاتجار في الممالك العثمانية ، وحقّ استخدام عدن مركزاً تجارياً لهم[3].

اما صاحب عدن سلطان لحج، محسن بن فضل ، فازدرى الفرمان ومعطيه. واما الانكليز فحاولوا ان يطلبوا تعويضاً منه عن مركب شراعي غرق في مرفأ عدن فنهبه الأعراب. ولمّا رفض طلبهم ، أمر قائد البعثة ، القبطان ستافورد هنس (Haines) بضرب المدينة . فأُطلقت عليها المدافع في ١٩ كانون الثاني ١٨٣٩

وبعد مناوشة برّية قصيرة سلّمت المدينة ، وانتهى الخلاف بمعاهدة بين السلطان محسن والانكليز. احتلّ هؤلاء بموجبها قسماً من المدينة يدعى «التواهي» . وكانت عدن قد ساءت احوالها ، وانحطت اهميتها ، حتى ان سكّانها لم يكونوا يبلغون ، عند وصول الانكليز ، الّا ستمائة نفس يقيم اكثرهم في

١) La Roque, *op. cit.*, p. 57.

٢) كذا في E. de Zambaur, *Manuel de Géographie et de Chronologie pour l'histoire de l'Islam*, p.130 اما الريحاني فيجعل اسم هذا السلطان أحمد (ملوك العرب ١ : ٢٥٨)

٣) الريحاني: الكتاب المذكور ١ : ٢٥٢

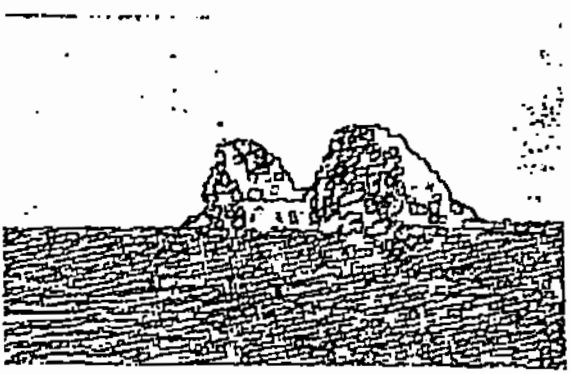

من منازل الصيادين في خليج عدن

اكواخ قشية ، ويعتاشون بصيد الأسماك[1] .

على ان العرب حاولوا مرات ان يستعيدوا عدن من الانكليز فلم ينلحوا . وكان الانكليز ، بالقوة حيناً ، وبالاتفاق ودفع المشاهرات احياناً ، يوسعون حدود مستعمرتهم ، ومناطق نفوذهم ، حتى استقرت الاحوال في نحو السنة ١٨٦٧ . اما سلطنة لحج فظلت حيّة ، الّا انها انكمشت على نفسها بعض الشيء ، وانتقل سلطانها من عدن الى الحوطة ، وجُعل الحدّ بينها وبين المستعمرة الانكليزية بلدة دار الأمير ، بعد ان اشترى الانكليز بلدة الشيخ عثمان فضموها الى عدن . وتوالى السلاطين موالين للانكليز حتى اليوم . وقد زار امين الريحاني ، سنة ١٩٢٢ ، سلطانهم الحادي عشر ، عبد الكريم بن فضل ، فلقي عنده كل حفاوة .[2]

---

١) *Encyclopédie de l'Islam*, I, 134 ؛ الريحاني : ك . م . ١ : ٢٥٢

٢) وهذه هي بقية سلاطين لحج ، اخذنا قسماً منها عن زبادور ، كما اخذنا السلاسل السابقة . والقسم الاعظم عن الريحاني :

١ – فضل بن علي	١٧٢٧–١٧٦٢
٢ – عبد الكريم بن فضل	١٧٦٢–١٧٦٣
٣ – عبد الهادي بن عبد الكريم	١٧٦٣–١٧٧٧
٤ – فضل الثاني بن عبد الكريم	١٧٧٧–١٨٢٧
٥ – محسن بن فضل	١٨٢٧–١٨٤٦
٦ – احمد بن محسن	١٨٤٦–١٨٤٨
٧ – علي بن محسن	١٨٤٨–١٨٦٥
٨ – فضل الثالث بن علي	١٨٦٥–١٨٩٥
٩ – احمد بن فضل	١٨٩٥–
١٠ – علي بن فضل	١٩١٥–
١١ – عبد الكريم بن فضل	١٩١٥–

واخذت عدن ترتقي وتتقدم بفضل النظام الجديد حتى اصبحت اليوم مدينة كبيرة ، ومحطة تجارية ، وحربية ، وبرقية ، في اعلى درجات الخطورة .

ويجدر بنا وقد ذكرنا وصف ابن بطوطة لمدن القرون الوسطى ، ونقلنا وصف قبطان البعثة الفرنسوية في اوائل القرن الثامن عشر ، ان نلخص وصفاً معاصراً للمدينة الجديدة . قال امين الريحاني ، سنة ١٩٢٢ :

« ان المدينة تُقسم قسمين : عدن الفحم ، والحصون ، والسياسة ، وتدعى التواهي ؛ وعدن التجارة والموبقات وتدعى كب اي المعسكر . في الاولى ، وهي على الشاطئ ، دار الاعتماد ، والقنصليات ، وبيوت الضباط والمتوظفين ، والانزال ، وبعض المخازن التي تُباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية ، وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في تم البركان ، او ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب الارض والاديان . فيها المسلم . . . والفارسي . . . والبُنيا . . . والمسيحي . . . والاسماعيلي . . . واليهودي . . .

« كلّ هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ، ويربحون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تُعرف أعربية هي ام هندية ام اوربية . واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتنيّرون ولا يتطوّرون . . . »[1]

ثم يصف الكاتب وصفاً شعرياً ما يسميه « التالوث المادي » اي مؤسسات البرق ، والنور ، والبخار : عرش البرق في رابية مركز التلغراف ، وعرش النور على منارة عدن ، وعرش البخار على ركام الفحم المتراصّة فوق الشاطئ .

« ها هنا اذن في اسلاك البرق ، وفي اسباب البخار اهمية هذه الزاوية الجنوبية من البلاد العربية . ومعلوم ان اساس الاتنين العلم والاجتهاد . وسياج الاتنين الأمن والنظام . أيستطيع سلطان لحج او إمام صنعاء ان يوجد الأمن والنظام ويوطّدهما في عدن ؟ أوَ يستطيع اذا فُوّض اليه امرهما ان يحافظ عليهما ؟ لا أظنّ ان احداً من ابناء العرب ، مهما صفت وطنيته وكبرت همته ، يجيب اليوم بالإيجاب . أوَ يستطيع العالم اليوم شرقاً وغرباً ان يستغني عن البرق والبخار ؟

١) الريحاني : ك . م . ١ : ٢٤٣-٢٤٤

لا اظنّ ان رجلًا عاقلًا يجيب بالايجاب . وهل يريد الشرق ان يستقلّ كلّ الاستقلال فيقطع الصلات كلّها بينه وبين الغرب ؟ لا اظنّ ان احدًا من الشرقيين مهما غالى بالوطنية يجيب بالايجاب .

« لا بدّ اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يدٍ تديرها وتحافظ عليها وتحميها . واليد اليوم انكليزية . وقد تكون غدًا يابانية او عربية . لكن الغد لله . يهمنا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطّة الكبيرة ، هذه الصلة المهمّة ، في كنف الأمن والنظام . ولو كان فيَّ ذرّة من اليقين ان الامام يحيى يستطيع ان يقوم مقام الانكليز لما فضلت احدًا وطنيًا كان او اجنبيًا عليه . »[1]

ذلك ان الامام يحيى كثيرًا ما اشتهى الوصول الى عدن وإلحاقها بمملكته . « كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده . . . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات . ولكنه لا يعلم ، على ما اظنّ ، ما للامم الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . » وقلّما يفيده في هذا الطموح حماسة جنوده وتوّاده وهتافاتهم : « نشتهي عدن — دعنا نزحف على عدن فنأخذها بعشرة ايام . »[2]

ولا يسهو الريحاني عن نظرة الى الشؤون الاخلاقية والصحية في عدن ، فينتقد مظاهر الموبقات ، ولاسيما في الشيخ عثمان[3] ، ويرغب الى الانكليز في الاهتمام بما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم — المحافظة على شيء من الروح العربية — مدارس تعلّم الناشئة لغتهم وآداب بلادهم — ما يصلح للشرب . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون سنة ، وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرشّ الاسواق[4] . وهنا ينقل ملاحظة للكاوتيل هارلد جاكوب الانكليزي في « كتابه ملوك العرب » تؤيّد كلامه فيقول : « المرافق في عدن لا تزال على الطراز القديم والماء ، وهو مالح ، يُجرّ من بئر في شيخ عثمان

١) الريحاني : ك . م . ١ : ٢٤٥-٢٤٦
٢) الريحاني : ك . م . ١ : ١٥٣-١٥٤
٣) الريحاني : ك . م . ١ : ٢٥٦
٤) الريحاني : ك . م . ١ : ٢٤٦-٢٤٧ .

ويوزع ببراميل تجرها الجمال. والطرق، وهي دائمًا في حاجة الى الاصلاح والانارة، لا تزال على الطريقة القديمة. اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال.»[1]

اما الماء فقد صلحت حاله بعد عهد الريحاني وجاكوب. فانشأ الانكليز مضخّات كهربائية في الشيخ عثمان منذ السنة ١٩٣٤. واما المدارس والحركة الثقافية اجمالًا فلا نعرف عنها شيئًا يُذكر، سوى ما يُستنتج من بعض المنشورات الصادرة عن عدن أنّ فيها مكتبًا للنشر[2]، وقد يكون فيها مطبعة كذلك.

اما الرقي الاجتماعي فلا يزال مطّردًا في المدينة. اتّسعت الشوارع الجديدة في التواهي، التي يدعوها الانكليز Steamer Point، واستقامت منفرجة على شكل اضلاع المروحة، حتى تتصل في النطقة المركزية Crescent، منزل السراة من قلب عدن. وأصبح المسافر يغتبط بفيء الشجر في تلك الساحة، وان لم يتجاوز عددها العشرين نخلة — وهي الوحيدة في شبه الجزيرة جمعاء — تظلّل بسمقها المنتشرة تمثال الملكة ڤيكتوريا، وتغتذي اصولها بالمياه التي كان الانكليز يستقدمونها، على مدة طويلة، بالمراكب من السويس.[3]

وزاد عدد السكان زيادة هائلة في مدة قرن. اذ انتقل من ستمائة، سنة ١٨٣٩، الى ٤٤ الفًا سنة ١٩٣٣، الى نحو الخمسين الفًا سنة ١٩٣١ من مختلف الألوان والاديان والعادات[4]؛ منهم نحو سبعة آلاف هندي، واربعة آلاف يهودي، ونحوهم من الصوماليين، والاحباش والسودان، والصينيين. يُضاف اليهم نحو ثلاثين الف عربي، يضطربون في فم البركان، او عدن القديمة، (Crater)، متقلّبين في حرارة مذيبة، لا يهتمون الّا بتجاراتهم، وحفظ مستودعاتهم الخازنة اثمن الكنوز في بلاد العرب السعيدة من الصمغ والبخور والبنّ،

---

١) Jacob, *Kings of Arabia*, p.263.

٢) من منشورات هذا المكتب كرّاس بعنوان: اصدقاء العرب، مَن هم يا ترى؟، ظهر في ٢٠ شباط ١٩٤٠

٣) Gaétan Fouquet, *op. cit.*, p. 70.

٤) أجري الاحصاء الاخير في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣١ في عدن وپريم – الجزيرة الصغيرة في مدخل باب المندب – فبلغ سكانها ٥١ الفًا، ٣٢ الفًا من الذكور و١٩ الفًا من الاناث. *Annuaire statistique de la S. D. N.* 1937-1938, tableau 2.

من سكان منطقة عدن

(تصوير الاب شارل)

الى جلود الحبشة، وحرائر الصين، وثمار جاوى. لا يبالون بما يلاقونه من غرائب المصادفات في تلك الشوارع الضيقة المتشابكة، التي قد تصطدم فيها السيارات الاميركية الفخمة بقطعان الماعز، وجماعات الحُمُر الناقلة الماء، وقوافل الجمال الحاملة محصولات اليمن وحضرموت.

ولا يهتم ما يعلق بوجوههم وايديهم من الذباب الضخم الموالي الطنين، وما يلصق بشعورهم من الغبار الثائر، ولا ما يذغدغ خياشيمهم من طيوب الشرق معطرة الهواء، ناشرةً في اختلاط عذب، عَرْفَ الياسمين، والبخور، والندّ، والبهار وسائر الافاويه.

هي المدينة التجارية، غاية القوافل البرية في جنوبي الجزيرة، ومحطة القوافل البحرية من الغرب الاقصى الى الشرق الاقصى، سواء أقصدت فارس والهند، ام افريقية الشرقية والسويس واوربة، ام سنغافورة واوستراليا واليابان، ام مدغشقر والكاب، تسهّل مرور البضائع المتنوعة بالمقادير الضخمة، وتختص باصدار القهوة النفيسة، تشحن منها كل سنة نحو الخمسين الف كنتال، ويبلغ رقم تجارتها السنوي ١٧,٨٠٠,٠٠٠ من الدولارات الذهبية استيراداً، و١٠,٨٠٠,٠٠٠ اصداراً[1]

واذا تخلص المرء من هذه المدينة التجارية، شاهد على الشاطئ الالوف المكدّسة من عظام السمك، وهياكل الاصداف، وبالقرب منها، متجاورتين،

(١) S. D. N., *op. cit.*, tableaux 33 et 121 – وهذا الرقم تجارة السنة ١٩٣٧

مقبرةً فسيحة ، وساحة للالعاب الرياضية[1] .

اما تحصينات عدن الحالية فلا تتناسب روعة مظهر وعمق تأثير ، مع تلك الحصون والقلاع القديمة التي وصفها قبطان البعثة الفرنسوية واشار اليها الريحاني. وذلك ان سادة المدينة اليوم يرون ان الطيارات الرابضة في خور مقصر ، وسط البرزخ الجامع بين عدن وشبه الجزيرة العربية ، كافية للدفاع عن الموقع. يردفها عند الحاجة بعض الكتائب من الجنود الانكليزية في ثكنات التواهي ، وفيلقان او ثلاثة من الهنود البنجابيين في قمم البركان ، ونحو الالف من الجنود العرب يرابطون في مضيق خور مقصر.

واما هل تكفي هذه التحصينات لدرء المخاطر عن تلك النقطة الحيوية ، فما يحكم فيه المستقبل !

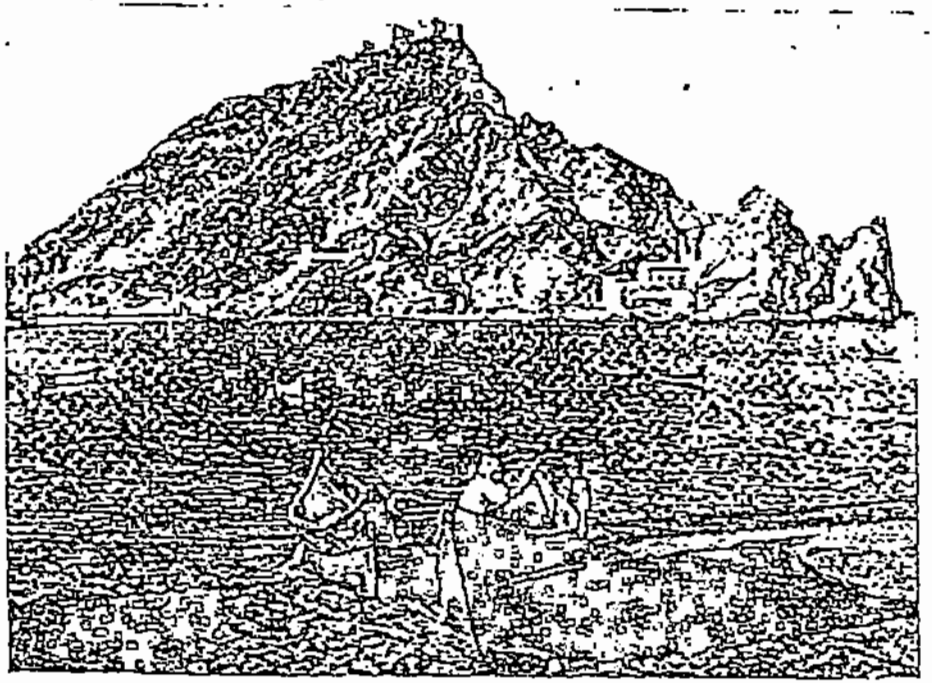

جزيرة سيراه ، شرقي عدن ، وما فيها من تحصينات (عن «الالوستراسيون»)

١) راجع في ذلك Gaétan Fouquet, *op. cit.*, p. 70